عميد الحقوق: أديب ٧٧ أو المسافرون بغير زاد

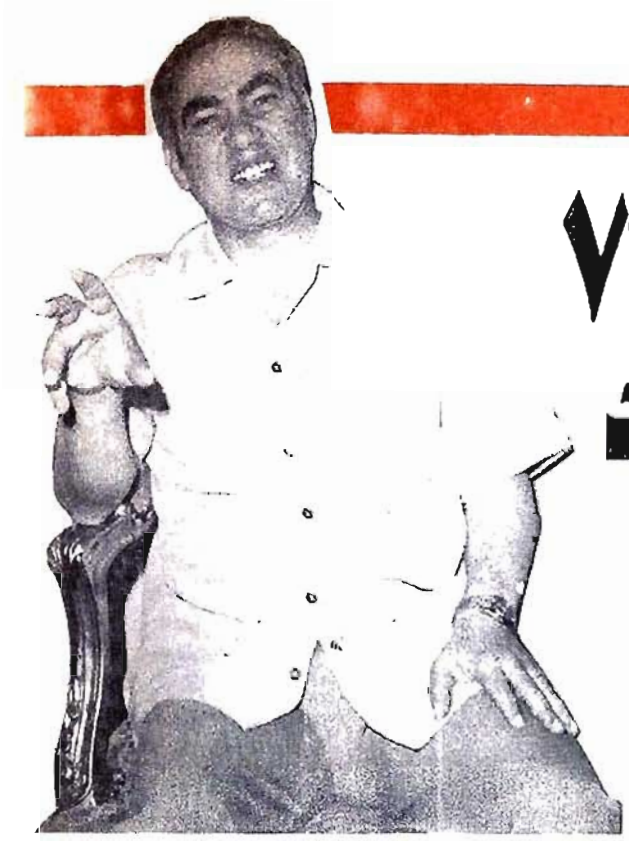

د. علي البارودي

● ● مفاجأة سنة ٧٧ الأدبية هي أول رواية عاطفية يصدرها عميد كلية.. وأبطالها جميعا من طلبة وطالبات الجامعة.

إنها رواية جريئة تصور مفهوم الطلاب للحب.. والجنس.. والقيم الأخلاقية والدينية.

سلطان محمود

إن الأديب الجديد لعام ١٩٧٧ - الدكتور علي البارودي - أصدر روايته الأولى في الأسبوع الماضي. وأعلن استعداده لترك منصبه عميدا لكلية الحقوق بجامعة الاسكندرية، والتفرغ للأدب لو اعترف به النقاد والقراء.

● إنه حدث أدبي هام - ان لم يكن أهم حدث أدبي في مصر عام ١٩٧٧ - أن يصدر عميد كلية الحقوق رواية عاطفية. أبطالها طلاب جامعة وتدور أحداثها في الحرم الجامعي.

وهي مفاجأة أدبية مثيرة.. لأنها أول مؤلفات عميد الحقوق الأدبية. وهذه أول رواية يكتبها وينشرها. وليس جديدا أن يكون بعض رجال القانون أدباء. فهذا معروف عنهم ولكن منذ بداية حياتهم العامة واشتغالهم بالقضاء أو المحاماة. أما بعد أن يصلوا إلى منصب عميد للحقوق. فلابد أن هذا يشكل مغامرة جريئة. لأن الفقيه الذي أصدر مؤلفات قانونية هامة وبارزة مكنته من أن يشغل هذا المنصب الجامعي الرفيع يغامر بسمعته العلمية والأدبية.. بهذا العمل الجريء والجنس، المغامرة كاملة عندما يختار كبير فقهاء القانون وعميد أساتذته بجامعة الاسكندرية موضوعا حساسا شائكا.. بالذات لمن يشغل مركز التربوي لروايته تتكلم عن الحب.. والجنس.. والتربية والأخلاق.. ورؤية الطلاب لهذه القضايا فإن رجل القانون الوقور عندما يعالج هذه القضايا كلامه محسوب عليه. ولن نستطيع محاسبته فقط - بالمعايير الأدبية - لأن موقعه كعميد لا يمكن اغفاله أو تجاهله وخاصة أنه لم يكتب أدبا الا بعد أن وصل إلى هذا الموقع.

وربما كان هذا هو الذي جعل الدكتور علي البارودي يتردد كثيرا - ويتأخر - في اصدار روايته. لكن الأديب في أعماقه انتصر على تردده. فقد غلبته رغبته في أن يقول كلمته.. وأن يقدم نفسه للناس بصورته الحقيقية - كأديب.. فصل طريقه إلى القانون.

● تزداد الجرأة في الرواية عندما نعرف أنها أقرب إلى أدب الاعتراف وهو ما أكده في صراحة المؤلف، فهو يسجل جانبا من حياته عندما كان طالبا ويقدم تجربته العاطفية والاجتماعية في الجامعة.

ويرسم بأسلوب رشيق ساخر الجو الجامعي والحياة الطلابية في الأربعينات.

مسافرون بغير زاد

● الرواية - مسافرون بغير زاد - أبطالها ثلة طلاب بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية في الأربعينات. ثمة طلاب تربطهم صداقة قوية يسهرون.. ويذاكرون.. ويمرحون معا وهم:

● محمد عبد الصمد. طالب من حي محرم بك.. ورث عن أبيه رجل الدين تمسكه بالأخلاق وحرصه على الفضيلة وأيضا قوته البدنية. وله في الوقت نفسه اهتمامات أدبية.

● صلاح شاب وسيم خجول موهوب الحس وأديب شاعر وهو متفوق دائما والأول على دفعته.

● عبد العزيز طالب لنان يعشق الموسيقى الكلاسيك وهو طيب إلى حد السذاجة. وأكثر أفراد الثلة ثراء.

● اسماعيل طالب صعلوك سافل أخلاقيا. لكنه ظريف وجريء له صداقات هابطة مع الساقطات - أسلوبه بذيء. ورغم ذلك فقد ضمته الثلة إليها. ربما محاولة لاصلاحه ولوفائه لأفرادها.

● يهجث طالب مهذب يمتاز بالاتزان الفكري والخلق.

● وكانت نادية فاتنة الكلية وحسناء الجامعة هي دائرة الضوء التي تجمعت حولها الثلة.. وأحبها بعضهم. لكنهم جميعا تحطموا على صخرة قلبها. وقد ارتبط محمد عبد الصمد وصلاح بنوع خاص أو درجة خاصة من الصداقة. جمعت بينهما صفات كثيرة مشتركة أهمها حب نادية، والأدب، فهما صديقان يجسدان المفهوم المثالي للصداقة الحقيقية. وهذه الثلة يصطدم تقازها وبراءتها بالزيف الاجتماعي الذي يحكم الكثير من العلاقات الاجتماعية في تلك الفترة (الأربعينات).

الزواج مثلا أقدس الروابط الاجتماعية قدم المؤلف بأسلوب ساخر بعض المظاهر الاجتماعية المزيفة التي تهبط بهذا الرباط المقدس به من خلال وجهة نظر محمد عبد الصمد - البطل الأول للرواية - وتجربته الشخصية مرتين. الأولى عندما التقى بساقطة من الساقطات اسمها رشيدة فقد استيقظ ضميره وسيطر عليه شعور الندم لارتكابه الخطيئة، ولكي يكفر عن خطيئته عرض عليها الزواج. وضحك عندما قالت له بلا مبالاة.

ولكني متزوجة يا محمد!

قال في دهشة:

متزوجة؟.

فضحكت:

نعم العقد والمأذون والشهود. ولكنها تمثيلية. كل مهمته الحقيقية هي حمايتي من الشرطة والتعهد على بحسن السير والسلوك إذا لزم الأمر!

تلك صدمة من الصدمات التقنية التي تعرض لها أبطال الرواية. فإن الزواج الرباط المقدس يمكن أن يكون تمثيلية رسمية!

والصدمة الثانية.. كانت عندما تزوج محمد بعد تخرجه. وقد صور المؤلف مشهد الزواج وعلاقة محمد أفندي سكر، ثم دخلت سعدية بفنجان القهوة وقد ملأت وجهها بالأصباغ، فلم تعجبني القهوة ولا سعدية. ولكني خجلت أن أرفض وخفت أن أكون السبب. في أن ينقض الاحتفال، ودفع المهر عني والذي الشيخ عبد الصمد، فجاءت العالمة تزفني إلى من لا أعرف.. أما زوجتي سعدية فإني أعرف عن تضاريس جسدها أكثر مما أعرف عن أفكارها ومشاعرها. كذلك هي فيما تعرفه عني.!

ويصور المؤلف قلق ذلك الجيل ومعاناته من ظاهرة النفاق حتى إنهم يعقدون ندوة لمحاولة تفسير وتحليل تفشيها في المجتمع، ويقدم بهجت تحليلا ساخرا طريفا يعلن فيه أن النفاق المصري يبدأ في سن المراهقة حين يتبنى الفتى المصري إلى أضعافه الجنسية ويتصور من كثرة ما حذروه وأفهموه انها الشيطان يكمن داخل جسده يخشاه.. ويخفيه عن المجتمع ولا يتحدث عنه ولكنه يخلو اليه ويمارس عادته السرية، وبتكرار ممارسة العادة السرية يكون قد اتقن الدرس الأول من دروس النفاق.

الاجتماعي ويرتاح إلى وجهين من أوجه الحياة أحدهما خبئ والآخر تمثيل ظاهر، وكأنه يتدرب على أسلوب العمل السياسي يدرج الحاكم علنا ويناقشه، ويهاجمه في جلساته الخاصة سرا.. تماما كممارسة العادة السرية.

وعبرت الشلة عن أفكارها في وثيقة رفعوا بمحمد مفاهيمهم حول الشرف والعدالة والحقة لكنهم كانوا أول من خرج عليها وأخل بالتزامه بها.

ولخصت الشلة كلها على صخرة قلب نادية زميلتهم الحسناء. التي توزع الابتسامات بالتساوي على كل زملائها وتخال وتزهو بأن الجميع يلتفتون حولها. يخطبون ودها كلهم أحبوها. ولم تحب أحدا منهم.

بل إن صلاح الطالب المتفوق المرهف الاحاسيس مات حبا. أحبها إلى درجة الموت والفناء التي عمره من أجلها. أرسل لها قصائده. لكنها صدمته عندما طلبت منه الكف عن الكتابة وارسال الخطابات إليها. لتخلط فائد الوعي في غيبوبة.. ثم انتحر.

● أما محمد عبد الصمد صديق عمره فقد كان يحب نادية في صمت.. طفل يكابر ويعاند رافضا الاعتراف بحبها. بل إنه رفض أن يقترب منها أو حتى يكلمها. واكتفى بأن يختلس النظر إليها أثناء المحاضرات. وأصعد أنها تبادله النظرات في صمت.

لكن عندما رفضت نادية حب صلاح. اعتبر هذا رفضا لحبه ايضا.. وتكلم مع نادية لأول مرة.. موجها إليها قذائف من الشتائم والاهانات.

وإذا كان صلاح قد مات حبا، فإن محمد مات بينه وبين نفسه. ضاع طموحه وتمزقت روحه.. وقنع بوظيفة موظف في ارشيف وزارة الأوقاف التي دفن فيه كل أماله.

● بينما لم اسماعيل صهلوك الشلة. لأنه استطاع أن يكيف نفسه مع المجتمع. وأصبح صعلوكا معروفا.

إني أعترف

●● هذا عرض سريع للقصة والآن لنتعرف معا على اديب عام ١٩٧٧ - الدكتور علي البارودي عميد كلية الحقوق بجامعة الاسكندرية. إنه يشبه إلى حد كبير - صلاح بطل روايته - ذلك الشاب الوسيم الاخضر العينين. ويضحك العميد الاديب من قلبه ضحكة ملأ وجهه أو الملامح الطفولية قائلا - فعلا كانوا يطلقون علي في الكلية «الواد أبو عيون خضرا» - وهو أصغر من جلس على مقعد عميد الحقوق فهو لم يتجاوز الخامسة والاربعين ويشغل هذا المنصب منذ ثلاث سنوات. حصل على الدكتوراه من السربون - وأب لثلاثة أبناء.

قال لي: فعلا إن اصداره رواية عاطفية وهو عميد لكلية الحقوق مغامرة لأنه وضع نفسه في اختبار ليس فقط أمام جماهير النقاد والقراء وإنما أيضا أمام طلابه.. والجامعة كلها.

لكنه يؤكد في ثقة أنها مغامرة محسوبة فهو يثق في قراراته الادبية. ويرى أن عند الكثير يمكن أن يقدمه الأدب الرواية العربية..

وأن الأديب في أعماقه يمكن أن يتفوق على الفقيه.

ويقول الدكتور علي البارودي إنه كتب هذه الرواية وهي أول محاولة له في كتابة رواية أدبية - عندما كان أستاذا بجامعة بيروت منذ ثلاث سنوات. ساعده هدوء الجو والفراغ وابتعاده عن مسرح الأحداث في جامعة الاسكندرية.. على الكتابة. لأنه - كما يقول - يحب الأدب. ويحب الحب، في أعماقه أديب. وقلبه يدق بالحب دائما. أحب كثيرا. لكن حبه كما يقول أفلاطون دائما. فهو يكره الجنس ويحتقره.

والعميد الأديب يتمنى لو تفرغ للأدب. لأنه على حد تعبيره يعتبر الأدباء هم أرقى أنواع البشر أو هم النمط الذي أراد الله له أن يكون أرقى المخلوقات.

إنهم يقلقون وينعذبون وينصهرون من أجل الأرقياء بالبشرية.

ويؤكد الدكتور البارودي أنه سيترك كرسي العمادة لو اعترف به النقاد والقراء أديبا.

وأسأله عن سر اختياره حياة الجامعة في الأربعينات مسرحا لروايته العاطفية الأولى.. فيجيب..

إنني عندما أكتب عن شباب الأربعينات فإنني أوجه رسالة إلى شباب السبعينات. أقول لهم هؤلاء هم الجيل الذي يحكمكم. فإن شباب الأربعينات هم الذين يحكمون اليوم. هم الوزراء والمحافظون والأساتذة والمديرون لجيل السبعينات.

- وماذا تريد أن تقول في رسالتك إلى جيل السبعينات عن جيل الأربعينات؟

أقول لهم إن هؤلاء الذين يتحكمون في مصائرهم.. نشأوا وعاشوا في جو مزيف. كان مجتمعهم مزيفا. حتى عندما حاول بعضهم وضع ونيقة شرف فشلوا.

شعارنا الجديد أنقاذ مصر

● يقول الدكتور علي البارودي.

إن الجيل الحالي حائر. صدم في جميع زعمائه وقادته. اكتشف أنهم كذابون. خدعوه. سقطوا جميعا أمام عينيه. فوجئ الجيل بأن كل من تصدروا الموائد والمواكب أبطال مزيفون. مراكز قوى. أو مختلسون. أو مرتشون أفسدوا الحياة الاجتماعية في مصر. والتقط الشباب المثل الأعلى والقدوة. لأن غالبية من ظهروا على مسرح الحياة العامة. لونوا بطريقة أو بأخرى.

وأقدم في هذه الرواية تفسيرا لذلك. لأن ذلك الجيل تكون ونشأ في ظل زيف ونفاق اجتماعي.

أما كلمتي التي أطالب بها جيل السبعينات فإنني أقول لهم لا تتأثروا بهذه النماذج المهزومة الساقطة. اصنعوا لأنفسكم قدوة.

ولترفع جميعا شعارا واحدا.. هو انقاذ مصر.. والعمل.. العمل.. العمل. إذا كان المسئولون ينتمون إلى جيل فاسد معقد لم يكن الشرفاء من تقديم طاقاتهم لوطنهم بسبب الزيف الاجتماعي والنفاق. وداس المنافقون على القيم ليصلوا إلى المراكز المرموقة. فانزوى الشرفاء. أصبحوا مركونين مثل - محمد عبد الصمد - موظف أرشيف وزارة الأوقاف!

إنني أقول لهذا الجيل.. تمسكوا بحب مصر وانقاذ مصر. تمسكوا بالشرف. إذا كان الشرف قد فقد معناه - في الفترة السابقة. وتركه وتخلى عنه الكثيرون - من أجل الوصول إلى المناصب أو تحقيق الثراء غير المشروع. فيجب عليكم أن تتمسكوا اكثر بالشرف.

إن صلاح بطل الرواية، مات بسبب كذبة صغيرة تافهة! خطاب مزيف.. قتله وجعله ينتحر لذلك يجب أن تتمسكوا بالشرف. والصدق..

وأقول لهذا الجيل - إن أمامكم فرصة عمركم، وهي الالتفاف حول قائدكم السادات. انه رجل مخلص صادق يعمل على انقاذ شرف مصر والمصريين قاد حرب أكتوبر ويحرص على ان يسود القانون ودولة المؤسسات. واعاد الاحزاب وحرية الصحافة.. ولأول مرة في تاريخ مصر تمت انتخابات برلمانية نظيفة مائة في المائة. لذلك يجب أن يلتف الجميع - خاصة المثقفين - حول الزعيم ويعملون معه من أجل انقاذ مصر..

شخصيات الرواية حقيقية ١٠٠٪

قلت للدكتور علي البارودي - نعود إلى روايتك مسالمون بغير زاد.. أليست هي من أدب الاعتراف أجاب: نعم. اعترف بذلك. وشخصياتها حقيقية مائة في المائة.. وهذه الشلة معروفة لدفعتنا في كلية الحقوق بل إنني مازلت احتفظ بالقصائد التي كان يكتبها صلاح. واعترف أنه يمثل بعض جوانب شخصيتي. لكنه في الحقيقة زميل آخر كان يشبهني تماما. وكنا صديقين نادرين. وقد مات هو حقيقة.

ولقد شاركته حب نادية.. لكني لم أمت بسببها. وصلاح اسمه منقوش في لوحة الشرف التي تضم أوائل كلية الحقوق بالاسكندرية والتي تتصدر مدخل الكلية لكن.. لم يكن اسمه صلاح طبعا.

وبهجت بحام كبير مشهور جدا فهو محامي كبار الفنانين واسماعيل يعمل في احد اجهزة الإعلام.

ويقول الدكتور علي البارودي إنه يوشك على الانتهاء من كتابة رواية عن حي الانفوشي، حي الصيادين.. وأبي العباس وأولاد البلد الحقيقيين. وهي الحي الذي تربى فيه العميد الأديب ويعد رواية أخرى عن الحياة الجامعية في السبعينات. لكنه لن ينشرها الا بعد ترك مقعد العمادة.

ويقول إنه لن ينشر أية رواية الا بعد أن يعرف رأي النقاد والقراء.

ويمكن أن نطمئن الدكتور علي البارودي أنه أديب عام ٧٧ حقا، فهو أديب متمكن له أسلوب متميز. وروية خاصة.

وإن كانت لنا بعض الملحوظات على روايته الأولى - فهو لم يستر إلا بثلاث شخصيات أجاد رسمها وتصويرها - وهي شخصيات محمد وصلاح واسماعيل. بينما أهمل رسم شخصيتي بهجت وعبد العزيز - رغم أنه كان مؤثرا في تطور أحداث القصة. وقدمه بصورة سطحية ولم يلق أي ضوء على تكوينه الداخلي أو الاجتماعي.

إن أكتوبر تقدم للدكتور البارودي - أديب عام ١٩٧٧ - وهو الأستاذ الجامعي الذي ناقش الرئيس السادات في لقائه بأساتذة الاسكندرية في احتفالات مايو الماضي. وأعلن الرئيس في حديثه التليفزيوني أنه سعيد بهذا الاستاذ الصادق في وطنيته..

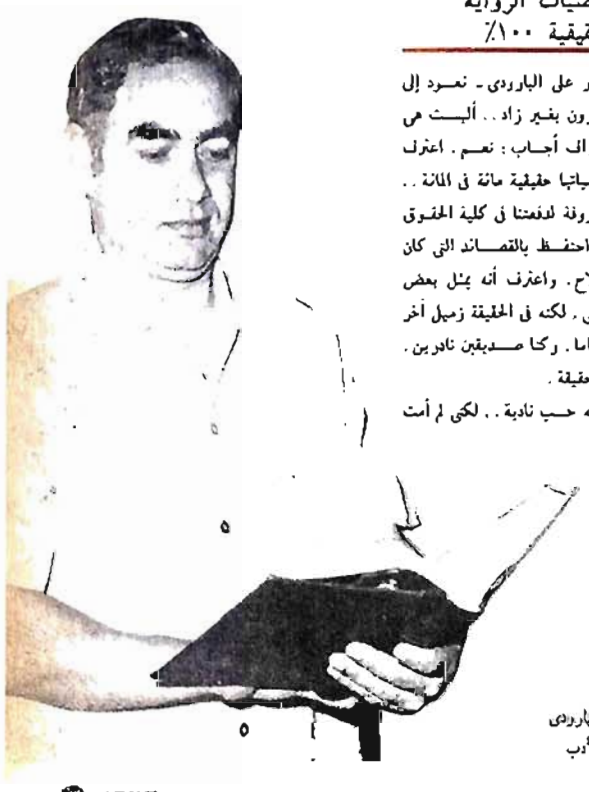

د. علي البارودي
عميد يهوى الأدب